حارس عناقيد الصرم

بقلم :

عزمي لبيب

مع كل غروب ..

تتجمع العصافير فى حديقة منزلنا . وتنتقل فوق اغصان الاشجار بحركات رشيقة قلقة .. وتظل تغرد بزقزقتها الشجية الى أن يأتى المساء فتهدأ تماما .

وتتميز حديقتنا الممتدة حتى مجرى النهر ، بزهورها النادرة وثمار المانجو وعناقيد العنب . وهناك الكرمة الكبيرة تظلل الطريق المحاذى لمجرى النهر .

وما يكاد جدى ينتهى من طعام الافطار حتى يهرع الى الكرمة .. كان يفضل الجلوس فى ظلها .. ينظر الى العناقيد ويكاد يحصيها .. وعلى البعد يتحرك عم يوسف الجناينى على ساقيه وقد انحنى ظهره فوق حوض النباتات الغالية ! ويرفع النباتات من داخل الاصص ويغرسها بعناية فى باطن الارض المبللة بالماء ، ثم يجمع حولها التراب بكلتا يديه .. كان يشتغل حافى القدمين ! وقد لف خاصرته بحبل من الليف المجدول . ورفع جلبابه الى مافوق ركبتيه . كانت قدماه عريضتين بهما اخاديد مشققة عميقة ! تبرز منهما اصابع يابسة منحرفة ! كان العرق ينحدر فى خيوط خلف أذنيه ، ومن جبينه على وجهه ثم ذقنه . وعندما صعدت ريح نشطه من الشمال ، استدار عم يوسف كى يلتقط نفسا عميقا يلتمس به شيئا من الراحة .. فينفجر جدى ساخطا يلعن .. ويوجه له الشتائم بصوت مرتفع . لابد أن شتم الذين يعملون عندنا ، و «القنزحة» على الناس ترضى نزعة التعالى عند جدى . ولقد اتسم سلوك جدى ـ ولا سيما فى المدة الاخيرة ـ بشبكه المطلق وحدة الطبع .

مقتنعا أن سلوكه هذا يكسبه مزيدا من الاحترام . وبين الحين والآخر يرفع عم يوسف ـ فى صمت ـ عينين ذليلتين وينظر الى السماء .

كان جدى يفضل الحديقة على كل شىء .. لم يكن يعطى من نشاطه واهتمامه الا للحديقة ولاختى « نانى » التى لم تجاوز الثامنة من عمرها . وعلى أثر صياح جدى المتتابع مع عم يوسف أخذت « نانى » تجرى ـ فى شقاوة ـ فوق الممرات الرملية وتقفز فوق أحواض النباتات متجهة ناحية الكرمة ، دون أن تكترث الى النباتات الغالية التى أفسدتها بقدميها اللينة من غير قصد ! وينظر اليها جدى بغضب ويصيح مزمجرا .

ـ ياشيطانه ! عليك اللعنة ! قلت لك الف مرة احذرى ! انا استوردت البذور من فرنسا وايطاليا .

وتغضب « نانى » وتخفى وجهها بيديها الصغيرتين . وتنطوى فى صمت على نفسها .. بينما يحاول جدى استعطافها ويربت على ظهرها .. ويردد بصوت تغلب عليه العظمة .

ـ لقد نبهتك أكثر من مرة يانانى .

ثم يضمها الى صدره .

وفجأة ! تقفز نانى فوق فخذيه وتقف عليهما بقدميها الطريتين وتمسك اذنه وتشد الشعرات البيض . فيرفعها الى أعلى كى تقطف العنقود الذى يروق لها .

بعد أن تضع يديها داخل جـــورب من القطن ٠

وفى شـــقاوة ، تجرى « نانى » من جانبه فينفرط منها العنقـود ٠٠ ومرة أخرى تقفز فوق أحواض النبـاتات ٠٠ ويلاحقها صوت جـدى بنبرات حادة ٠ وتختفى عن وجهه تماما ٠

وبقدر ماكان جـــدى يحب زهوره وثماره ٠٠ كان لا يستطيع أن يحتمـل بعد « نانى » عنه ! ربما لانهـــا الطفلة الوحيدة فى المنزل ٠ وربما يرى فيهـا صورة من صور طفولته ٠ ويظل يجوس داخل الحديقة وينظر خلف الاشجار ٠٠ وعنـدما يبلغ به التعب ٠٠ يقف فوق رأس عم يوسف ! وهـــو مافتىء يجمع الاصص الفارغة ويضع بعضها داخـل بعض ٠ ويسأله قائلا :

ـ اين ثمار المانجو التى تسقط من الشجر ٠٠ اننى ارى معالمهـــا فوق الحشائش ولا أجدها ٠

ويرفع عم يوسف عينـــين كسيرتين ويلوذ بالصمت ٠

ـ تكلم ياعجوز اين تذهب الثمار ؟

كنت فى ذاك الوقت ، أوشـــك أن انتهى من امتحان « بكالوريوس » الطب لذلك لم أكن أعطى من انتباهى لما يقع فى الحديقة بل كانت تتســـاقط على الاحداث تلقائيا ٠٠ من ثورة جـــدى العارمة ، التى كان صداهـــا ينتقل الى داخل المنزل ٠ ومن حركات نانى القلقة وأسئلتها الحائرة ٠٠ هل جـــدى جاء هنا !؟ هل جدى كان هنا !؟ ثم تتوثب كى تختفى من جديد ! ويمتد بحث جدى الى داخل المنزل ويظـــل يلف ويدور داخل الحجرات ٠٠ ويسأل عنها أمها ٠

فى هذه اللحظات ! كان يظهر عناد «نانى» وشقاوتها أيضا ٠ كانت تحمل الزهريات ، التى وضع جدى بداخلهـا زهوره النادرة ، وتضعها على التوالى فى حجرة نومه ، فيعرف أنها كانت هنا ! ويعود من جديد يفتش المنزل ويلف ويدور داخل الحجـرات ٠٠ ويتعذب وتتهـدج أنفاسه ٠٠!

وبعد قليل من الوقت ، دفعت «نانى» باب حجرتى ودخلت وهى تجر ساقين متخاذلتين ٠٠ وتمسحت بالمكتب وقد ظهر الضيق على وجهها المستدير ٠ وطواها تفكير طويل ! ثم همست بصوت مخنوق ٠

ـ جدى طـرد الجناينى ٠٠ عجيبة والله ٠ ثم تستطرد مبهورة ٠

ـ ضبط مع ابنه عنقـــود حصرم ! عنقود حصرم يقطع رزق الراجل ٠٠ جدى أصبح لا يحتمل ٠٠

ونظرت الى «نانى» طويلا ! وقد تعلقت بأهداب عينيها حبتان من اللؤلؤ ٠ ومست لهجتهـا الودودة نفسى ! وجثم على جو الحجرة سكون ثقيل ٠٠ وبعد فترة صمت رانت بيننا قلت بهدوء ٠

ـ تصرفى ٠٠ تصرفى أنت ٠٠ أنا مشغول ٠٠ عندى امتحان ٠٠

ولم أستطع أن أقف بجانب «نانى» أو ـ حتى على الاقل ـ أسند رغباتها !

كان سلوك جدى العدائى للجميع ، يقف حائلا بيننا جميعا ٠٠ كان جدى شديد التعلق بالتنقيب عن الاخطاء ٠ وكان هذا سببا للهروب من «نانى» ثم ربت على ظهرها بحنان وأغلقت خلفها الباب ٠ وانصرفت للمذاكرة ٠

وقبل الغروب ، شاهدت جدى ـ من شرفة حجرتى ـ يسير بجانب «نانى» فوق ممرات الحديقة فى طريقه الى الكرمة وحلا لى أن أرافقهما ٠ وقد ملأنى احساس بالغبطة وأنا أتتبع حركاتهما وانطلاقهما كان جدى يدفع نانى كى تبعد العصافير عن الكرمة ٠ وتجرى نانى وتقفز وتلهث ٠ وضفيرة شعرها الطويلة ـ ذات الشريط الابيض ـ تتراقص خلف ظهرها ٠ وجدى يلاحقها وعيناه معلقتان الى أعلى ٠٠

وزحفت الى ذهني واقعة عم يوسف الجاينى وابنه ! وسألت نفسى بصوت سمعته اذناى . هل نجحت «نانى» فى اعادة الجاينى !؟ واجتاحنى احساس بالشك !! وتذكرت حادثة الخادمة الصغيرة التى طردها جدى منذ أسبوعين بحجة أنها لم تعد تقدم لنانى الاحترام الكافى .. وأن الخادمة نسيت خلال حياتها معنا ، أن «نانى» من فتيات الأسر الاستقراطية .. كما كان الناس يقولون فى الماضى .

فقد نزع جدى القرط الذهبى بعنف من أذن الخادمة ، التى لم تبلغ العاشرة من عمرها . ثم فتح الباب ودفع بها الى الشارع بقميصها المهلهل القديم .. وبذلت «نانى» قصارى جهدها كى تستأنف الخادمة العمل .. عندئذ ! وقفت بجانب «نانى» ، وأوضحت لجدى أن الخادمة تحمل لنانى حافظة الكتب .. وتضفر لها شعرها .. وتلعب معها .. وأن سلوك الخادمة لايشوبه الغبار ، لمثل سنها .. ولكن محاولتنا منيت بالفشل . وأصر جدى على موقفه !! منذ ذلك الحين ، باتت تصرفاتى معه جامدة .. خالية من أى عاطفة ، وأصبحنا لا نتكلم معا الا بدافع الضرورة ..

وأخذت أملأ رئتى بنسائم العصر الطرية . وبعطر زهور حديقتنا الفواح . وقد هبت ريح باردة من النهر .. وعلى البعد سحابة قاتمة تنقشع رويدا رويدا عن سماء زجاجية زرقاء .. كانت الريح تدفع براعم النباتات فى دوامات من الهواء .. ونهر النيل ينساب متمهلا فى ضوء الشمس الذهبى ، والطريق المحاذى للكرمة يغرق فى سكون ووحشة . وكانت «نانى» تقترب من السور الحديدى وتنظر الى الطريق والى مجرى النهر .. كأنما تنتظر شيئا !! ربما كانت تأمل أن تلمح خادمتها الخاصة التى حرمت منها ، أو ترى عم يوسف الجاينى وهو يعبر الطريق خلف السور .. ومرة بعد مرة يرتفع صوت جدى مؤكدا أن بنات العائلات العريقة لا يتصرفن هكذا .. ويأمرها أن تبتعد عن السور ..

ومع الغروب ، أخذ أولاد الاحياء المجاورة يتوافدون على الطريق المحاذى للكرمة .. كان يحلو لهم اللعب فى ظل الكرمة .. كانوا يجرون ويلعبون فى تشكيلات غير منتظمة وفى مرح وعيونهم غير مستقرة .. ينظرون دائما الى داخل الحديقة .. وعندما كانوا يلمحون جدى بجسمه المترهل وهو يتربص خلف السور ، ينصرفون الى الفناء ويبتعدون .

وبين الحين والآخر كنت أسمع ـ وأنا واقف فى الشرفة ـ صدى طلقات بندقية الصيد .. فتخرس أصوات العصافير وتذوب الزقزقة الأخيرة مع صدى الطلقات . ويهبط السكون فجأة ! ولسبب أو لآخر !! يضيق صدر جدى ويمتلىء بالحقد والغضب . ويجرى بطول الكرمة كى يرهب الأولاد ! وكثيرا ماكانت تتكرر ـ أثناء لهوهم ولعبهم ـ هذه المداعبات أو المشاغبات .. لست أدرى بماذا اسميها ! .. لكن فى هذه المرة ـ رغم اختلاف مداركهم وأعمارهم ـ اتفقوا جميعا على أن جدى يقف ضد مرحهم ولعبهم .. فتصدوا له .. وللاسف تصور جدى أنهم يتحدونه .. فامسك خرطوم المياه وأخذ يصوبه نحو الطريق ونحو الأولاد ! فبلل ملابسهم وتعالى صياحهم .. وتكرهب الجو فجأة ! وكأنما شحن بطاقة من السخط !! ولا سيما عندما سقط أحدهم فى الوحل .. فاتسخت ملابسه وسال الدم من أنفه . ومن جديد صعدت أصوات متشنجة صاخبة . ولم تكن « نانى » ولا الاولاد ينتظرون أن يحدث كل هذا !

ويصيح جدى بصوت مرتفع جدا :
ـ لا تقتربى منهم يانانى ·· سأضعهم جميعا فى الملاجىء ·
وتستجمع نانى شجاعتها وتقترب من السور · ثم تسألهم برقة :
ـ ماذا تريدون !؟
ـ نريد أن نلعب ·

وتبتسم نانى فى خفر وتهمس قائلة:
ـ جدى يقول أنكم تفسدون الثمار ·
ـ جدك !؟ جدك المنفوخ ·
وينفجر الاولاد بالضحك والسخرية· وتظهر علامات عدم الرضى والحرج على وجه نانى ·· ويقترب أحد الاولاد من السور الحديدى ويهمس قائلا :
ـ لماذا لا تلعبين معنا !؟

وفى ارتباك تلتفت « نانى » الى الخلف حيث يقف جدى ثم تهمس قائلة :
ـ جدى يغضب ·· جدى يغضب ·
ـ من جدك هذا !؟ من جدك هذا !؟
ومرة أخرى تهمس « نانى »
ـ مدحت باشا الشماشرجى ·
ويسود بينهم صمت · ويغرق المكان فى جو غير متماسك ·· لكنه مفعم بالود · وتنتشر همهمات وأسئلة خرساء ·· يطغى عليها صوت جدى وهو يصيح مزمجرا :

ـ تعالى يانانى · تعالى بسرعة ·· اتركى الامر لى أنا ·· سأدعو البوليس·
وفى ثورة الغضب ، يندفع جدى ناحية « نانى » فيصطدم بالخرطوم ـ وهو مازال بين يديه ـ فيختل توازنه ، ويقع على حافة حوض النباتات ويتمدد فوق الحشائش المبللة بالماء ·

وفى بادىء الامر ·· أفزعنى صوت ارتطام جسم جدى بأرض الحديقة · وبدون أى تفكير قفزت من الشرفة ، وأسرعت الى الكرمة ·· كان جدى يرقد فى سكون تحت الكرمة ! وبطنه مرتفع وقد تهشم زجاج نظارته الذهبية ·· فتسلخ جبينه وظهرت بقع الدم فى أشكال غير منتظمة وسال على وجهه · والاولاد ينظرون اليه مشدوهين للمفاجأة ونانى تقف بجانبه مضطربة · وقد تمدد بجانبه ظله على نحو مخيف ! وكان الهواء اللافح قد اشتدت حرارته وأوشكت الارض أن تكتسى لونا رماديا ·· وبعد أن مسحت وجهه بطرف منديل أمسكت ذراعه اليمنى وأخذت أجس النبض · وفتحت عينيه ونظرت فيهما · ثم أمرت بنقله بحرص الى حجرته · كان التراب المبلل بالماء والقش عالقا بملابسه · وبعدئذ أعطيته حقنة «كورامين» لتنشيط الدورة الدموية · كان يضع يده فوق قلبه ويئن بصوت خافت ويتنفس ببطء وفى الخارج مافتئت العصافير تضرب بأجنحتها العناقيد المدلاة · وكانت «نانى» تتحرك فى قلق وتدخل الحجرة على أطراف قدميها ! وتطل فى وجهه الشاحب ثم تخرج ببطء ! وعلامات انكسار وأسى تفيض على جوانحها · وحينما كاد يقترب من التحسن شعرت بالاطمئنان عليه · وأسدلت ستائر النافذة وأغلقت عليه الباب وتركته للراحة · ثم طلبت من «نانى» أن تذهب لتنام ·

ومن جديد انصرفت الى المذاكرة ·· وبين الحين والآخر كنت القى نظرة طويلة عبر الشرفة تثبت ـ فى النهاية ـ فوق الكرمة التى اكتظت بالعناقيد ·

وفى الصباح مات ·
وبسرعة وبهدوء نقلناه الى مدفن العائلة ·
ومع ضوء الشمس الغاربة ، رأيت عم يوسف الجناينى وهو يستقبل الاولاد كى يقدموا العزاء لنانى ·